العدد (1801) السنة السابعة - السبت (22) أيار 2010 ◆ er.com - E-mail: almada@almadapaper.com

تكرس المدى الثقافي صفحتها اليوم لاستذكار الفنان الراحل عبد الرحمن الجابري الذي رحل عن عالمنا الاسبوع الماضي في المانيا بعد معاناة مع المرض..اسهم فيها اصدقاء ومعارف الفنان عبر كلمات تستجلي السيرة الحياتية والابداعية للفنان ومنجزه الفني الذي امتد لاكثر من ثلاثة عقود من الزمن..والفنان الجابري من مواليد العمارة عام ١٩٤٧ وتخرج من اكاديمية الفنون الجميلة منتصف السبعينيات.. عمل رساما ومصمما في العديد من الصحف، واقام العشرات من المعارض الشخصية في العراق والدول الاوربية..واضطر الى مغادرة العراق عام ١٩٧٨ بعد حملات القمع والتنكيل التي شنها النظام الدكتاتوري ضد المثقفين التقدميين..واستقر في المانيا قبل ان يغادرنا الى الابد.

المدى الثقافي

تركنا نستعيد بعده الذكريات

كاظم حبيب

مات صديقنا أبو عشتار ... مات عبد الرحمن الجابري... " ستبقى لوحات الجابري حية تذكرنا به وتتحدث عن إنسان نبيل أحب الحياة والإنسان وعشق الطبيعة والفن ...".

منذ الصباح الباكر نقل لي الزميل فاروق الوادي الخبر المحزن والأليم، خبر وفاة الصديق العزيز عبد الرحمن الجابري. ودون وعي مني اغرورقت عيناي بالدموع وتحشرج صوتي وأنا أساله عن وقت الوفاة وكأنها مهمة بعد أن مات العزيز. لم اصدق الخبر رغم علمي بمرضه، فقد كان قبل فترة وجيزة في بيتي قضينا الليلة في أحاديث ممتعة وذكريات قديمة حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل بعد أن شاركنا معاً في حفل زواج ابنته عشتار من أحد أبناء تونس الخضراء في برلين. كان يبدو بصحة مناسبة وكانت الفرحة في تلك الليلة غامرة إذ أن ابنته العزيزة، تلك الفتاة الجميلة والرقيقة تحتفل بزفافها. أربع لوحات زيتية بحجوم مختلفة تحيط بي في غرفتي وشقتنا رسمها الفنان أبو سلام في فترات مختلفة، بعضها كان هدية كريمة منه وبعضها الآخر اقتنيتها منه ووعدني بخامسة حين أقوم بزيارته في مدينة إقامته بألمانيا، لكنه فارقنا على حين غرة وتركنا نستعيد بعده الذكريات. لوحاته تعبر عن امتلاك هذا الفنان البديع المبتسم للحياة دوماً عن حس مرهف للألوان وحرفية عالية ووعي عميق بالعلاقة بين الضوء والظل، بين المكان والإنسان، بين الإنسان والطبيعة، بين الحب والحياة، بين الغربة والوطن، بين الاستبداد والقسوة والموت والخراب، كل لوحاته كانت تعبر عن حبه الفائق للحياة وللإنسان. مات عبد الرحمن الجابري وترك خلفه عشرات بل مئات اللوحات الفنية التي ستبقى حية لتذكر الناس به وبفنه الأصيل. أرى لوحاته ولا اصدق أنه فارقنا وتركنا بدونه، فقد كان دائماً معنا في كل مكان، كان معنا بمشاعره ولوحاته ونكاته الجميلة، كان معنا بما يحمل من هموم شعبه. كنا في السنتين الأخيرتين نتبادل الأخبار بكثافة أكبر عبر البريد الإلكتروني أو الهاتف عن أوضاع العراق وعن بعض خيبات الأمل التي يصاب بها الإنسان من جراء ما يجري في العراق من صراعات ونزاعات طائفية مريضة ومقيتة. كان المرض يوجعه وأوجاع العلاج اشد وأمر، ولكن كانت أوضاع العراق هي التي تؤرقه وتحول حياته في لحظات معينة إلى جحيم مرهق ويحاول أن يتغلب عليها بنكتة تجسد واقع العراق الراهن أو بقرص مسكن يساعده على عبور شدة الأوجاع.

كان رحمن وطنياً صادقاً ويسارياً ثابتاً وماركسياً واعياً وصديقاً وداً للضعفاء من الناس، للفقراء، للمقهورين من الناس في كل أرجاء العالم. حين جاء إلى برلين جلب لي معه هدية ثمينة هي عبارة عن لوحة زيتية (١٥٠ X ١٥٠ سم) رسمها في العام ١٩٨٩ تحمل صوراً رسمت لشهداء الدكتاتورية العسكرية الغاشمة في الأرجنتين وصوراً رسمت الأمهات الثكالى بأبنائهن حيث يرتسم الحزن على وجوههن وهن يطالبن بحكم القضاء العادل ضد الدكتاتورية ورفض إصدار العفو على القتلة منهم. لقد تجلت في هذه اللوحة بألوانها الغامقة وتجاعيد وحركات وجوه الأمهات والسماء ذات الألوان المتداخلة عن أفق مشرق غير بعيد ينبئ بانتصار العدالة الاجتماعية.

كانت اللوحة تجسد روحه الأممية التي لا تعرف الحدود دفاعاً حقوق الإنسان وحقوق القوميات والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وضد الاستبداد والقمع والقسوة أينما وجد. الأشهر الأخيرة كتب لي يقول لقد بدأت أرسم لوحات جميلة، لم اعد أرسم ألواناً غامقة، بل حياة فرحة ومرحة وألواناً ضاحكة منطلقاً من مقولة "تفاءلوا بالخير تجدوه!". حين كان راقداً في المستشفى يعالج مرض السرطان الذي أصيب به قبل عدة أعوام، وجهت له رسالة حكيت له فيها عن رجل كان مريضاً بالسرطان ولكنه كان ينظر إلى الحياة بروح إيجابية وقاوم المرض وانتصر عليه، وقلت له أني أثق بانتصارك على المرض أيضاً. أرسلت هذه الرسالة لأكثر من صديق كان مصاباً بالسرطان. فرح بها كثيراً. انتصر لعدة سنوات على مرضه، ولكن في الآونة الأخيرة ضعفت مقاومة جسده ونحل وازدادت الآلام المبرحة عليه فصرعه المرض بعد أن انتشر في جميع أنحاء جسمه ولم يعد قادراً على المقاومة وغادرنا في ٢٠١٠/٥/١٢ بعد منتصف ليلة حالكة السواد من دون أن يودعنا وأن نمنحه قبلة الوداع الأخير. لقد فاجأنا بموته ونحن نيام! ولكن "ابو عشتار" سيبقى حياً في ذاكرتنا بلوحاته ورسائله المرحة ونكاته الطيبة والهادفة، فإلى عائلته الكريمة وأصدقائه ومحبي فنه أحر التعازي وله الذكر الطيب.

رحمن الجابري.. رسم مأساة الإنسان

موسى الخميسي

من خلال انخراط الجابري في صلب الحركة الثقافية العراقية التي كانت تتصف بالمتانة والقوة في فترة السبعينيات اهلته بامتلاك القدرة على المناورة الثقافية المبكرة، وفتحت له الابواب لرؤية خلاصة الثقافة العالمية والجهد الانساني الذي يمتدد الى اعماق الحضارات العريقة الأخرى، وهذا منحه القدرة على استيعاب اساليب المدارس التقليدية ومفاهيم الرسم السائدة، إضافة الى الرغبة في التغيير لكي يجد في رسم انفعالاته الذاتية حريته التي تساهم بعد ذلك في خلق اجواء التفاعل بين ما هو ذاتي طموح يحاول الافلات من القواعد الاكاديمية للرسم، وبين التجارب الجديدة التي يخوضها الاتجاهات الفنية العالمية التي اظهرتها حركة العروض الفنية العالمية.

وقد انعكست هذه الرغبة مباشرة بعد فترة وجيزة على مغادرته الوطن في نهاية السبعينيات، ليحط رحاله في مدينة فلورنسا الايطالية عاصمة عصر النهضة، التي تضج بالحياة وتزدحم بالفنانين ودور العرض والقاعات الفنية التي تحتفل بمختلف الانشطة، كانت بالنسبه له بمثابة الحلم، وكانت ايضا البوابة العصية على العراقي القادم من الخارج الذي يريد اقتحامها برزقه وفنه فلجأ الى مواصلة ابداعه وليحول غربته الى مؤثر خارجي يقترب من انفعالاته، ليوظف المؤثرات الجديدة بتعامل جريء انعكس على سطوح العديد من الاعمال الصغيرة والتخطيطات التي انصبت في بداية الامر على عدد من المبادرات التجريبية، الا انه كان يعي ضرورة انشاء لوحة مطابقة تحاكي ما يختزن بداخله، فقرر ان تكون خطواته غير متعثرة وهو ينظر الى واحدة من مآسي عصره، وان يكون بتوجهه هذا بعيدا عن التلقائية التي تكون في معظم الاحيان قادرة على طمسه في التفصيلات التلقائية كما هو حال عدد كبير من زملائه العراقيين الذين عاشوا تجربته. وكان هذا التهديد مساعدا على صقل توازنه، فكان موضوع تهجير الاكراد ليصنع في مرحلة لاحقة تشكيلات ملونة تحمل ذاكرة شعب يجبر على الاقتلاع عن ارضه. ولم تكن التجربة الاولى،، الا انها كانت الاساس الذي شيده لما لحقها من موضوعات وتطلعات مزدوجة ظلت حتى يومنا هذا ذات علاقة يتبناها في العديد من اعماله اللاحقة.

كان يمارس الضغط على عمله الفني ويعرضه لرحمة المشتقات الفنية، ويعاود التذكير بما يسبق الارتجال. مرحلة (التهجير) التي استمرت نحو عشر سنوات هي تجربة انطلاق، يمكن وصفها بانها مرحلة بناء اراد منها ايجاد مخرج للوحة من ضغوط كثيرة.وهذه التجربة التي نضجت بعد مغادرته الى اسبانيا ومنها الى المانيا للاستقرار النهائي، تسير بهدوء وبترقب، معتمدا على ذاكرته الصورية وعلى تلك الانفعالات في تشكيل بنائيات انشائية فتح من خلالها فضاء جديداً استفاد من خزائن زياراته المكثفة لعدد كبير من المعارض والمتاحف التي كان يزورها باستمرار، ومن معطيات كثيرة ومدارس محلية وعالمية متعددة بعضها تضرب مؤثراتها في اتجاه الموروث المحلي والعالمي، وينهل من الفنانين الايطاليين المعاصرين ومن المدارس الالمانية وعلى الخصوص مدرسة الجسر الازرق.

الا انه اتاح لنفسه ان يكون متأملاً ومشاهداً ومتذوقاً وناقداً بعيدا عن المصادرة او الابتزاز. اعتمد الجابري في مجموعاته التي يمكن تسميتها بمرحلة(التهجير) على تقنية شكلية تعتمد على فصل الاشكال داخل سطح اللوحة بحافات حادة فاصلة..

الطموح الدائب لبناء معرفة جديدة لموضع التهجير من خلال اللوحة ارجعه الى امكانية قادرا على مواصلته نبش الجرح برؤية مستبصرة تتسم في احيان كثيرة بالبساطة، الا انها تمتلك التعبير الاصدق والطموح لاعطاء قراءة متميزة لانسان تلك المعاناة التي اخذت اشكالا مختلفة وابعادا مختلفة، كما انه يقدم من خلالها برهاناً على تقديره لفنه وبحثه سواء في لوحة واحدة او في اعمال منفصلة تعد بالعشرات.

نقلتنا لوحاته في تلك المرحلة الى مناطق كنا نألفها كموضوعات سياسية ولم تالفها اذواقنا ولا ابصارنا، اوجدتها ظروف اقل ما يقال عنها انها صعبة امتدت تاليها حواسنا وقوانا الروحية بطاقة خفية رسمتها البيانات والمقالات الصحفية وبعض الاحيان الصور الفوتوغرافية، جعلتنا جميعا داخل محطات الالم والمعاناة، الا انه من خلال بصيرته ووعية بمحنة شعبه الكردي المهجر، ومن خلال مقدرته الفنية في الكشف عن هذا الرعب، جعلنا اكثر اندهاشا واجذابا لمتابعة تلك اللوحات التي رسمها بالزيت وكانها امتلاك لتلك العوالم من البشر مليئة بالحركة جاعلا منها هدفا يشيع من خلاله رغبة مترسخه في كيانه تتمثل في حبه لهؤلاء البشر وكانهم مشهد عام عابر كل جزء فيه يحمل تاثيرا مباشرا على المشاهد..لوحاته تلك كانت تستهدف وضع المشاهد في حالة من حالات البحث والتقصي عن دلالاتها و المتجذرة في نصوصها المعلنة ، ففي كل لوحة من هذه اللوحات يلمس المرء ثمة تساؤلات ملحة وثمة خطاباً مفعماً بالاشارات يدفعنا دفعا الى متابعته ومحاولة فهم هذه المأساة الإنسانية تدفعه قدرة باهرة في التلاعب بالالوان فجعلها عوالم مرئية أكثر حساسية.

عبد الرحمن.. اعتليت عرش المحبة

جمال العتابي

أبا عشتار .. أشعر أن آلاف المدن ، آلاف البحار والأنهر ، آلاف الأشجار ، والفراشات والطيور تعيشُ في قلبك..كنت قد صادقت الصمت ، منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماك عتبة (طريق الشعب) و (الرواد) .. في ملامح وجهك قصيدة جديدة ،منذ الخطوة الأولى التي تمتد من ميسان الى (البتاويين) ، كنت قد فتحت قلبك ، فوجدنا انفسنا فيه ، كالماء الصافي . من أي نافذة أرنو للماضي ؟ من أي باب نمد يدنا للمستقبل ؟ كنا نود اكتشاف قارات جديدة ، ولكن أين ؟ في الطرقات الدامسة، في حدائق (الرواد) وساحاتها .. في لوحاتٍ وتخطيطات .. رسمتها انامِلك الرقيقة ؟ ..ربما أصنع بالكلمات شيئاً يساوي حزنك المعلق بالجدران .. كل جدران الطرق، في الغرفة الزجاجية الأولى المطلة على ممر (الرواد) .. لم نحشر فيها،ابداً انا ، وانت ، يوسف الناصر ، فلاح ، قيس قاسم ، مصطفى أحمد ، سامي العتابي ، ليث الحمداني ، محمود حمد ، كنا نشعر حينها انٍ العالم كله يعيش ، بيننا ، ومعنا ، كنت تجمع الريح لتبني لك بيتاً ، مع (عشتار) التي قدمت الينا مبكراً، خلاف كل زملائك الذين عزفوا عن الزواج ، واختاروا (الصعلكة) والسهر في الليل .. شئت لوحدك ، ان تعيش في عالم الاطفال والعرائس. مع فتاة تحلم بعيد .. لكنك لم تهنأ حتى بهذة الأمنية ، لقد اغتالوها ، يا عبد الرحمن .. كل امسك بمعوله يهدم الحلم، ولم تبق لنا عيون ..حين سافرت الى بلاد (الأرصفة) .. لم تفكر اولاً بأنك سافرت الى بلاد الحسناوات. اذ كانوا قد انهالوا علينا ضرباً بالمعاول...كل الناس يموتون .. احرقوا الوطن ، وصار سجناً وبنوا على أنقاضه وطناً آخر ، انتزعوا كل قلب .. فقتلك حبك للوطن ..المؤسف ، ان الأشياء التي تبعث على الحزن ، هي وحدها التي تدعوني الى ان اتذكرك يا رحمن ... لم اتخيل في يوم ما انني سارثيك .. بعد انقطاع لثلاثين عاماً ، عشت فيها وحدك في الغربة ، فجأة تظهر أنت على واجهة الصفحات .. مبتسماً.. خجولاً ، رشيقاً ، انيقا ، صورتك هي نفسها التي اينعت غصناً في قلبي ، لكنها انطفأت ، يا حسرتي .. وها هي عشتار تفتح عقد ضفائرها .. وتمشط شعرها على اكتافك .. ترفرف معها العصافير المليئة بالاسرار .. اين هي الان ، ترى هل كبرت ، واصبحت امرأة كيف تحدق بالوجوه من بعدك ؟ كيف تلملم رسوماتك ولوحاتك واشياءك .. كيف تجمع قطرات المطر ، فوق وريقات علقتها في غرفتك ، وفي (نفنوف) عشتار ، ملأى بعطر العراق ، بعطرنا ، عطر اصدقائك. ها انت يا رحمن احرقت مشاعل ذاكرتي.. لكنك اعتليت عرش المحبة.

عبد الرحمن الجابري المخلص لطفولته

نجم والي

أية مصادفة: في اليوم الذي إتصل بي الصديق علاء المفرجي محرر المدى الثقافي للكتابة عن الصديق عبد الرحمن الجابري، قفز أمامي على النت الخبر التالي: يبرز عبدالرحمن الجابري والذي يبلغ من العمر ١٥ سنة وهو من أبناء مدينة ساه منطقة الصيقة بمحافظة حضرموت رساماً غير عادي، إعتبره رواد مكتب الثقافة بوادي حضرموت رساماً فريداً من نوعه ولديه قدرات خارقة رغم صغر سنه، إذ إن لديه خيالاً كبيراً وواسعاً يترجمه في لوحاته الكثيرة التي قام برسمها. موهبة عبد الرحمن الجابري ظهرت خلال السنوات الماضية وخلالها إستطاع رسم أكثر من ٣٠٠ لوحة.

العائد "خائباً" وللتو من رحلته إلى أهله في الناصرية العراق، بالضبط بليلة واحدة من إتصال الصديق علاء المفرجي بي. طالب حسن لفظ خبر موت عبد الرحمن بحزن كأنه أراد أن يبث عن طريقه أيضاً رثاءه لناصريته التي لم يعثر عليها أو على نفسه التي فقدت بعد تلك الزيارة آخر ما كانت تملكه من أمل بعودة حياة. ترى هل مات عبد الرحمن الجباري للسبب ذاته؟ بسبب خيباته المتكررة؟ بسبب مدنه التي ما عادت تصلح مكانا لطفولة مفقودة؟المرة الأولى التي إلتقيت بها عبد الرحمن (وكان طالب حسن أيضاً حاضراً معي) في حفل اقامته جمعية الطلبة العراقيين في مدينة فرانكفورت في خريف عام ١٩٨٢. كان عبد الرحمن قادماً من رحلة بدأها بعد خروجه مع خروج الشيوعيين الأول إثر إنهيار عقد الجبهة الوطنية عام ١٩٧٨، رحلته تلك مرت بإيطاليا ثم اسبانيا وإنتهت في مدينة مانهايم القريبة من فرانكفورت، أما أنا فقد مرت على منفاي الألماني سنتان، بعد مغادرتي بلاداً كان اسمها الجمهورية العراقية، رحلتي بدأت في ٢٨ أكتوبر ١٩٨٠ بستة أسابيع بعد إندلاع الحرب العراقية العالمية الأولى، عفواً الحرب العراقية الإيرانية، رحلة كانت على طريقة أفلام الأكشن إنتهت بي إلى شمال ألمانيا في مدينة هامبورغ وتكملة دراساتي العليا في جامعتها، من الصعب تصور عطش مَنْ خرج في تلك الأيام للقاء عراقيين يتنفس معهم هواء جديداً غير هواء الديكتاتورية، من الصعب على أحد اليوم تصور لهفتنا في تلك الأيام لأن نجتمع على منظر لوحة أو قراءة قصيدة أو قصة، على عمل إبداعي بعيداً عن عفونة هواء الديكتاتورية الخانق. أتذكر كيف أنه فرح بلقائي عندما عرف أنني كاتب وصحفي، رغم سني مقارنة به في حينه، دون أن يعرف بأنني ومنذ بداياتي الأدبية الأولى، بل حتى منذ قراءاتي الأولى وكل صداقاتي كانت أكبر مني سناً. عبد الرحمن يكبرني بتسع سنوات، لكنه لم يمنحني الإنطباع، بأنني أصغر منه سناً، كان فرحاً بي، مصراً على زيارتي له في البيت لكي يريني لوحاته. أربع أو خمس سنوات لم نر فيها بعضنا بعد ذلك، لكن عندما سمع بعدها برحلاتي المتكررة إلى مدريد عن طريق مطار فرانكفورت، اصر على أن أعمل محطة عنده في الذهاب والإياب، "لابد من أن تزورني يا نجم"، قال لي، "عندي لك لوحات جديدة، لابد من أن تراها"، وفي كل المرات كان حماسه يتضاعف، في كل زياراتي تلك (التي من الصعب إحصاؤها الآن) حرص على تهيئة لوحاته الجديدة التي رسمها، كان يرتبها لي بعناية، وعندما يرى نظرتي المتشككة أحياناً، لأنه لم ينس ما قلته له في أول لقاء لنا، "في رسومك الكثير من الواقعية الإشتراكية"، ولكي أنسيه تجهمه بسبب جملتي تلك، أضفت "أترك الإشتراكية لجمعية الطلبة العراقيين، وأكتف لنفسك في الأقل بالواقعية"، جملتي تلك جعلته يضحك، وكان يجيبني بضحكة لم تخل من الحزن أبداً، "ماذا أتوقع من شروكي مثلك غير شيوعي"، وكان يعرف أنني لا أزعل من جملته تلك، ففي النهاية هو على حق، ثم نحن الإثنان من مواليد مدينة العمارة. لكن بقدر ما كان يبدو مصراً على واقعيته "الإشتراكية" في رسومه، بقدر ما رأيته يفكر ملياً بتعليقاتي غير المريحة.إذا كانت هناك ميزة أو علامة فارقة تميز عبد الرحمن الجابري عن الآخرين، فهو إخلاصه لنفسه ولصداقاته. كان مخلصاً لموقفه، خرج شيوعياً واراد أن يبقى شيوعياً، حتى إذا كان ذلك على حساب لوحاته. وهو إخلاصه هذا الذي جعله يتميز فنياً حتى عن زملائه الرسامين الشيوعيين، لأن واقعيته الإشتراكية حزينة بحزن منفاه، بحزن يأسه غير المعلن، بحزن خيباته المتتالية في الحياة، سواء في فشل المشروع الذي نذر حياته له، المشروع الشيوعي، أم سواء في فشل صداقات راهن عليها كثيراً، بل حتى في فشل مشاريعه الحياتية بتكوين عائلة "تقليدية" على غرار ما حققه زملاء له. "تراجيدية المنفى"، كنت أخفف عنه، رغم أنني لم أره يشكو يوماً، لكن مع كل سيجارة كان يدخنها، مع كل سيجارة يمص فلترها، كنت أشعر بعطشه للون أكثر عمقاً في ألقه، ابعد مدى في الضوء الذي ينثره في لوحاته، حلمه بلوحة لا تختنق بيأس منفي يرى سنوات حياته تجري بسرعة أمامه، مثل من يقود دراجة تنزل على منحدر، الدراجة تسير نحو هاوية عميقة، لا يفوق عمقها إلا هاوية البلاد التي تركها وراءه: خراب في خراب. اية مفارقة عبد الرحمن الجابري الذي أراد التحكم بدراجته تلك في السنوات الأخيرة والذي بدأ بلملمة نفسه، بإعادة ترتيب عدته، إن عبد الرحمن الجابري هذا ما أن بدأ يقترب من الحكمة في لوحاته، حتى قرر المرض أن يهوي عليه بمطرقته التي لا ترحم، كأن حياته لا يمكن أن تسير بغير هذا الشكل، ما أن ينقذ جلده من ديكتاتور حتى يسقط في براثن ديكتاتور آخر.إذن بالفعل، اية مفارقة قلت لنفسي وأنا أقرأ خبر عبد الرحمن الجابري الصبي ذي الخمسة عشرة عاماً:مات عبد الرحمن الجابري العراقي العماري المولد، ليبدأ عبد الرحمن الجابري الآخر، عبد الرحمن اليمني الحضر موتي المولد. بهذا الشكل أراد عبد الرحمن أن يحافظ على طفولته الأبدية.

وداعاً أيها الصديق.

الرسام عبد الرحمن اعتبره جميع من كان في المكتب موهبة قادمة يحتاج إلى من يسانده لترى اللوحات الرائعة التي رسمها الضوء... إلى هنا الخبر..في الوهلة الأولى ظننت أنني اخطأت القراءة، وإنها إسقاطاتي لا غير، جعلتني أقرأ اسمه، فلأنني فوجئت بخبر موته الذي بثه لي أولاً صديقي طالب حسن